(المقتطف) تحثنا عن حكايات هذه البعثات الى جزيرة تيبرون والرجال المذكورة اسماؤهم فيها وتواريخها فلم نجد ما يؤيدها. وكلّ ما فيها من الصحة على ما اتضح لنا هو ان تيبرون جزيرة في خليج كليفورنيا يفصلها عن الساحل الاميركي مضيق صغير. ويخيل الينا ان الحكايات من وضع بعض الروائيين والغرض منها ترويج الجريدة التي نشرت فيها لا ذكر حقائق تاريخية وامور واقعية

النزاهة

قبل ان ادخل قلب الموضوع واتوغل في البحث اعرّف النزاهة واحدّدها لئلا تبقى عثرة كؤوداً في سبيل الانصاح او يأتي في كلامي ارتباك واضطراب اتحاشاها في مثل هذا المقام. جاء في التعريفات « النزاهة هي البعد عن السوء وقيل هي اكتساب مال من غير مهانة ولا ظلم الى الغير » فيكون مؤداها الى معنى honesty الانكليزية او honnetetá الفرنسية. لاسيما وان فعل نزه يتخذ في العربية بمعنى تباعد عن كل مكروه وتنزه عن السوء بمعنى تباعد وتصوّن فيقال يتنزه عن الخسائس والدسائس والمعائب والمطامع وملائم الاخلاق. وجاء في القاموس النازه اسم فاعل ورجل نازه النفس اي عفيف متكرّم يحلّ وحده ولا يخالط البيوت بنفسه ولا ماله » وكان الاولى استعمال كلمة العفة بمعنى honesty لو لم تغلب هذه بين اهل النصرانية على ترك الشهوات البدنية وطهارة الجسد والتبتل لان في الاصل العفة مصدر عفّ الرجل اي كفّ عما لا يحل ولا يجمل قولاً وفعلاً وهذا عين المعنى الذي يريده الفرنجة بلفظة honnetetá وليت اتخذ المعربون لفظة النزاهة في معرباتهم وانزلوها منزلة اللفظة الاوربية

لندع ناحية الابحاث اللغوية ولنرد معهد الآداب ونقف في عرصات الاخلاق لندرس هذه الفضيلة السامية ونتقدم اليها متهافتين مسرعين فهي عمدة لا نستغني عنها ومكرمة لا بدّ لنا منها في حياتنا الفردية والاجتماعية. النزاهة هي فضيلة الصدق مبدؤها والامانة رائدها والوفاء بُنيّتها وان شئت فقل النزاهة مصدر يشتق منها ماضٍ وحاضر ومستقبل فماضيها الصدق وحاضرها الامانة ومستقبلها الوفاء. اما الصدق فهو قول الحق وايراد الوقائع الماضية على علاتها

وحالاتها واجتناب الزيف والباطل في الكلام . فالمجتمع البشري والتاريخ وشهادة الشهود والتجارة كلها مؤسسة على هذه الفضيلة السامية . فان غابت شمس الصدق وتوارت اشعتها الزائفة اناخ ظلام الكذب بكلكله وعوّج مقوّم الاخلاق وافسد صلاح محامدها وهدّ ركن العمران ونقض كل مأثرة حسنة

والكذب فاعلم افظع المساوي صاحبهُ مُشفٍ على المهاوي

وقد روي عن النبي (صلعم) انهُ قال «تحروا الصدق وان رأيتم فيهِ الهلكة فان فيهِ النجاة وتجنبوا الكذب وان رأيتم ان فيهِ النجاة فان فيهِ الهلكة »

اما الامانة فهي الاحتفاظ بالودائع ورعاية ما جعل قيد الذمام من مال وحرم . وكتمان السرّ والقيام بالعهود والمواثيق . والامانة ركن المروءة وموطدة الثقة وداعية الخير والبركات ورائد العفاف بين الزوجين ورابطة تربط قلوب الاخوان وتديم مودتهم وصداقتهم وشهاب ساطع في افق الاخلاق والمبرات وكوكب لامع في سماء الآداب والحسنات أفولهُ يزج في غياهب الغدر والخيانة ومساوىء اللوم . فمن كان امينًا في دنياهُ برًّا في ايمانهِ شارك الناس في اموالهم وقد قال السيد المسيح في الانجيل « كنتَ امينًا في القليل فاقيمك على الكثير »

والوفاء هو المعروف للمحسن واداء واجب شكرهِ والقيام بحرمة ضيعتهِ ونث فضائلهِ وهو ظاهرة من ظواهر النفس السامية الشعور وشعاع من اشعة الاخلاق الحميدة والشمائل الكريمة تنبيء بطيب عنصر صاحبها . وهو كذلك من تباشير الرقي في المجتمعات وفواتح الالفة في المنتديات وبوادر الرقي الى الامراء وذوي المقامات

يؤيد قول الشاعر العربي القائل :

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم خلٌ وفيٌ للشدائد أصطفي

فعلمت ان المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفيّ

قالهُ شاعرٌ والشاعر مهيج الشعور رقيق الحس سريع التأثر تشجيهِ اقل نغمة وينبسط من ادنى رنةٍ فيطربهُ تغريد الطير وخرير الماء ويتوجد لنوح الحمام ويكربهُ الغرام كما تقبض نفسهُ دياجي الظلام . فلو قالهُ اخلاقيٌ لوقفت اندب المروءة على اطلال الدهور وابكي الزاهة على هضاب العصور وانادي للمجتمع

بالويل والثبور. كيف لا والوفاء من ضروريات الآداب والمجتمع البشري فاستحالة وجوده تفزع مهذبي الاقوام وائمتهم. فلو قال شاعرنا ان للوفاء آفات والغدر مروجات لاصاب كبد الحقيقة وادى المطلب

النزاهة كعبة يقف في عرفاتها ملبياً النزه والخسيس وكل منها يظهر نفسهُ او يتظاهر انهُ رهين شارتها وقيد اوامرها وزواجرها. او هي دولة يحمل كل من البشر رايتها ويرفع علمها ويدعو لها بدوام عزها وبقاء ملكها. على ان تظاهر بعضهم بسماتها قد يكون كذباً بحتاً وميتاً صراحاً. فيتدرع المنافق بما ينتحلهُ من الدعوى بها اذ يعرف ان النزاهة مغنمٌ وخلق رضي فيلبس من الرياء ثوباً قشيباً وينادي النار ولا العار وانهُ ليربأ بنفسهِ عن مواطن الذل ويتجافى عن مطارح الهوان فلا تستغويهِ كنوز الدهبان ولا تورطهُ في سوء معادن المقيان فيتخيل لك انهُ صادق الدعوى وان بلسان حالهِ قد انشد الشاعر القائل :

فسري واعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاري

الا انهُ اذا لمع في عينيهِ شعاع الابيض الفتان وصفاء الاصفر الرنان ترتخي عزائمهُ وتتقوض امس نزاهتهِ فتصبح تلك الاحاديث حبائل افكٍ ومواربة وشباك مينٍ ومراوغة فيتطوح صاحبنا في مطارح الخيانة ويرتشف كاس الخساسة حتى تعالتها فتفضح دخلتهُ وتكشف مغبتهُ فيصح فيهِ قول القائل :

اظهروا للناس نسكاً وعلى المنقوش داروا
وله صاموا وصلوا ولهُ حجوا وزاروا
ان يكن فوق الثريا ولهم ريش لطاروا

والنزاهة من اقدس واجبات البشر على اختلاف طبقاتهم وتباين منزلتهم. قال السر بنيامين رودياد « لا يتحتم على المرء ان يكون غنياً وعظيماً ولا ان يكون عاقلاً بل يجب على كل فردٍ ان يكون نزهاً مستقيماً ». اجل فان النزاهة واجبة على كل فرد الا ان تبعة اهمالها على الحكيم والعظيم اكبر مما على الجاهل والحقير. ان خان المعوز فليس لهُ سبيل وان زاغ عن الوفاء الذليل فلا يبرأ فيهِ من الملام وان تنكر الجاهل عن سنن النزاهة للغدر فلا يطهرهُ زوفا جهلهِ من تبعة الذنب ولا يغسلهُ الثلج من اثمهِ ولا برحض وزرهُ. اذا كان هذا شأن المعوز والذليل والجاهل فما القول في رجل لهُ من الظارف والتليد ما

تجعلهُ في رخاء العيش ويقيمهُ تحت ظلال العزّ والهناء وينسى نعمة ربهِ وينكر آلاءهُ فيطمع في حطام ينتهزهُ ويشدهُ الى مكاسب دنيئة. فذاك غول متسم الجبهة بميسم العار وخسيس النفس يصمها بوصمة الشنار. واذل منهُ في نظري عزيز قوم يسود فتن السياسة وحميد امة يقوم في ذرى امورها وذروة نظامها فتحدثهُ الحوباء شرًّا ويطبق الشيطان خاتم الحرص على قلبهِ فيطبعهُ بغروره فينتجع المنح والروافد ويرتاد الصلات والفوائد فيهتك سرّ دولتهِ ويرقف الاعداء على خطط سياسة مملكتهِ فيطوّح بني جلدتهِ في ورطة المهالك والمعاطب لقاء صلة ويهدر دم اخوانهِ عوض منحة. فذاك الأثم من على وجه البسيطة ويحق ان يكون مصرعة تحت مطمعهِ. ومثلهُ رجل من حضنة العلم واولي العرفان واسير من امراء الكلام يبيع وجدانهُ بيع البصل والكرّاث ويؤجر طلعهُ اجار السلع والعروض ويرهن عرفانهُ رهن الاملاك والبيوت ويسخر قلمهُ في تعزيز مبادىء يرفضها في مخدع ضميرهِ وفي تأييد امور يأباها في مستودع اسرارهِ ويناضل عن مسائل ينفر منها في سويداء قلبهِ. فهو شرير وعلهُ عليهِ عذاب اليم فيؤاخذ بعرفانهِ ويقضي عليهِ بحجتهِ. فالعارف بالشريعة والواقف على السنن والمتفقه يشجب شجباً يفوق بشدتهِ شجب الجاهل كما هو يفوقهُ بعلمهِ

ان دواعي الضلال لكثيرة ومنقضات النزاهة عديدة اشهرها حب المال. جاء في الانجيل قول حري بهِ ان ينقش على جبين الدهر بحروف من التبر قال السيد المسيح « لا تعبدوا ربين الله والمال » فالمال رسول الرجيم ان كسب في المحارم وانفق في الشهوات والاسراف وهو نازع الشهوة ومحسن القبائح ومسوّل الفضائح يلعب بالعقول كما يلعب الهر بالفار ويفسد الضمائر كما يفسد السوس العهن ويكثر الادغال في الدين. هذا شأن درهم السحت الذي يتحطب الى الجيوب بطرق لا يجيزها الدين ولا ترضاها النفوس الابية فاحب الى العقول السامية المدارك والنفوس الشريفة الشعور ان تغص بالصدى في طرق الحلال وتعيش شريفة في مفاوز لم ينزل فيها قطر من ان تروي بماء رنق مختلط بالمكاره والمفاسد. وما ابدع المثل العربي القائل: ظمأ قانع خير من ري فاضح

نحن في عصر قد توفرت فيهِ اسباب البذخ وتعددت سبل الترف وزادت مطالب الحياة. من صروح شاهقات ومشيدات مفخمة واثاث بديع ورياش

نفيس ولباس مهندم وزي كل يوم جديد . وحلى ثمينة وعلوق نفيسة وما كل انيقة ومشارب عذبة ومجتمعات وسهرات ومقامرة ورقص وتنزه في العجلات والسفن. كلها هذه علل تصيب النزاهة في ارق قوامها ان لم يكن دخل البيوت وثروة الرجال كافيين لسد نفقاتها فيعمد المسرفون الى قبول الرشى فيحقون باطلاً ويبطلون حقاً او يعقدون الديون ويثقلون كاهلهم بها رويداً رويداً وتشتد وطأتها عليهم قليلاً قليلاً فلا يعون الاَّ وهم بين مخالب الفرماء في مازق لا مخرج لهم منهُ الاَّ مخرج الافلاس ولا منفذ الاَّ منفذ التذلل والخيانة فلا يحترمون مواثيقهم ولا يقومون بمواعيدهم بل ينكثون عهودهم ويغدرون الناس في ثروتهم. لو حرصوا على النعم واتبعوا سنة النظام في عيشهم وأنفقوا ما تيسر لهم انفاقهُ لكانوا في غنى عن تلك السبَّة التي تبقى في الاعقاب ما كرَّ الملوان وظهر الجديدان. ومثلهم مثل الضفدعة التي ذكرها لافونتين في قصصهِ فانها شاءت ان تحاكي البقرة في ضخامتها فنفخت جسمها حتى تمزقت فانها بحثت على حتفها بظلفها وماتت ضحية التقليد وحب التظاهر

قال معاوية « ما رأيتُ تبذيراً الاَّ والى جنبهِ حقٌ مضيَّع » وقال الشاعر :

ما دام يدري المرء مقدارهُ فانهُ بالعجب لا يهلك

ومما هو شرٌّ من ذلك تهافت بعض الرجال والنساء من الطبقات الوضيعة على مضاهاة ازياء الاغنياء واقتفاء اثرهم في بذخ العيش ورغده . وان لم يجدوا الى نفقاتها سبيلاً هاموا في وادي تضلل وتاجروا بما لا يحق لهم المتاجرة بهِ من آداب واخلاق رضية . ولا يسعنا المجال ان نكشف النقاب عن حقيقة حال تلك الدنايا بل نكتفي بالايماء اليها من طرفٍ خفي حرمةً للمقام . فيعيش من نعني بهم عبيد الحطام ويموتون إماء الشهوات

وليذكر من كان هذا ديدنهُ ان اطايب الطوى تمر مر السحاب فلا تفتنهُ العواري ولا تستزلهُ الملاهي ولا يضلهُ الزبرج فتلك تنقطع وتبقى عليهِ تبعة المحارم ووصمة المآثم

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضهُ فكل رداء يرتديهِ جميلُ

ستأتي البقية بغداد يوسف رزق الله غنيمة